المرحلة الثانية من احساس السياب بالموت

بقلم مدني صالح

ويغيم (*) ضوء الاصيل كئيبا فوق المقابر بداية للمرحلة الثانية من احساس السياب بالموت في مطلع قصيدته التصويرية البارعة « حفار القبور » .. وهي القصيدة التي سجل فيها السياب المتراكم في تصوراته واخيلته من احساسه بالموت حتى ١٩٥٢ .. وسجل بها بداية شاعرية ملحمية تدهورت مع ما تدهور في السياب ومع ما اشتد عليه من نفسه ومن الآخرين ومن الايام في نار فتنة أشعلت اخضر النابهين بيابس الابرياء ولم ينج من حرائقها غير البائعين نسورهم للغرباء ... وظن لا تبخل بظن يظل السياب نسرا في سموات شعر هذا العراق ... ويظل نسرا مهيض جناح تعاون على رض جناحيه عدو وصديق وسمسار في حلكة منعطفات تمذهبية لم يكتب لها من رصانة المنطلق ووضوح الهدف ما يحفظ الارض صلبة تحت قدمي السياب فتخبط اذ اهتزت تحت قدميه الارض رخوة هشةفغاصواصابته من التوحل اهوال مذهلة لم يعد من شدة ذهولها قادرا الا على الصراخ والاستصراخ وتبادل الاتهامات مع الآخرين بتوتر وهيجان وبالمجان ... واستعدى السياب في شعره فريقا على فريق وناسا على ناس هابطا من علياء تخوم الاداء الملحمي المتمثل في « حفار القبور » و « الاسلحة والاطفال » و (المومس العمياء) الى قاع ظلموت آبار مهجورة نسيت نعمة الغيث من طول ما استبد بها القحط المحل ونسيت طعم الماء ... وغاص غاص هذا الشاعر في ظلموت الآبار المهجورة حتى صارت بينه وبين تخوم الاداء الملحمي الموفق سموات وآفاق لم يعد قادرا حتى على ابصارها تخيلا في الظلماء ... وانشغل عن قضية الموت الكبرى بقضايا اوجاعه الخاصة وخوفه من الموت وبقضايا ارتبط فيها الموت بالثارات حتى حد التشفي بموت رجل مات .. ولا ينبغي ان نكون التشفي بموت ميت من مزاج شاعر ... رب اغفر للسياب !!..واغفر له ما غام الاصيل كئيبا وغامت معه ـ كئيبة ـ الاحلام ، واغفر له كلما اغتصب اليتامى ابتسامة من الدهر مكابرة وتجملا ... وكلما اغتصب السياب من الدهر ابتسامة لا تلبث الا لاما فتهب اسراب الغربان اشباحا مرعبة ويتثاءب الظل البعيد تثاؤبا يستنفر صور الموت في موكب جنائزي بائس حزين وباسلوب يقطع كل ذرة من شك بالف الف قنطار من يقين حول قدرة السياب على ابداع « وحدة الصورة » فيالقصيدة باداء مسرحي ـ قل ان شئت ـ او بآداء السرد القصصي الرصين ... وهذا مالا أخاله ممكنا الا من خلال حالة تركيز مذهلة تذهل المرء عنكل ما هو غير الموضوع : موتا كان الموضوع او حياة او أي امر من الامور.. والتركيز ـ محض التركيز ـ علامة صدق اهتمام وعلامة اخلاص لهموم.. وذلك لان التركيز يعني تكريسا للموضوع : حيا بشربا ، او حيا غير بشري ، او بشرا ميتا ، او شيئا جامدا ، او أي مفهوم من المفاهيم بصرف النظر عن منطقيته ومدى واقعيته ، وبصرف النظر عن منفعته وقيمته العملية او الاخلاقية او الجمالية ...

والتكريس ـ محض التكريس ـ وبما هو تكريس ، وبصرفالنظر عن موضوعه ، بداية الولاء ونهاية الاخلاص وأصل الابداع .. وذلك لان التكريس لموضوع ينطوي على بذل من النفس بلا حدود وبلا دراية وبلا تقدير ... « والجود بالنفس اعلى غاية الجود » ...

أما ان يبلغ التكريس حد الذهول والاستغراق ، فذاك بدايةالكشف والرؤية الثاقبة والابداع في الآداب والعلوم والفنون ... ظن ما شئت تظل الرؤية الصادقة بداية لفرضيات ومبدأ المعرفة واساس النظريات، تطورت ما تطورت طرائق البحث ونظريات المعرفة ومناهج العلوم .... وتظل قصيدة « حفار القبور » دليلا على صدق احساس السيابالموت واندماجه فيه حتى حد بداية الخلق والابداع المجيد ، وحتى حدانجاز نص لم يرق اليه في عراق اليوم بعد استثمار مسرحي برقصتصويري او بتمثيل غير وصلة قراءة تعبيرية من انتاج فرقة اتحاد الفنانين في بغداد عام ١٩٦٩ ..

لكن ولكن : فقد يرقى النقد الى شيء من تحليل يزين النص ويزدان به ويدنيه الى القاريء بسيطا جميلا مثلما تدنى القطوف ،ومثلما تصير المقابر موضوع قصيدة بارعة ومريحة ، ومثلما بطرح السياب قضاياه الحياتية من خلال الموت وحفار القبور ومقبرة عامرة بموتاها في ظاهر بصرة الحسن البصري وبشار الشعر وشط عرب الف سندباد لم يبحر قط والسياب » .

وليس بقليل ان تمتد المقبرة مسرحا وتمتد مع المسرح مواقفحياتية يطويها ميت وينشرها حفار قبور « مستوحد بين الصخور الصم من انقاض دار .

عند المساء ... ومقلتان تحدقان ، بلا بريق .
وبلا دموع ، في الفضاء ـ

---

* راجع مقالتي « السياب والاحساس بالموت » في « الآداب » العدد السادس ـ حزيران ١٩٦٩ بيروت .

« هو ذا المساء
يدنو ، واشباح النجوم تكاد تبدو ، والطريق خال ـ فلا نعش يلوح على مداه ... ولا عويل الا النعيب .
وتنهد الريح الطويل :ـ
وعلام تنعب هذه الغربان ، والكون الرحيب .
باق بدور .. يعج بالاحياء : مرضى ، جائعين .
بيض الشعور كأعظم الاموات ـ لكن خالدين لا يهلكون ؟ علام تتعب ؟ ان عزرائيل مات .
وغدا اموت غدا اموت !

وهز حفار القبور

يمناه في وجه السماء وصاح : « رب ! اما تثور ؟
فتبيد نسل العار .. تحرق ، بالرجوم المهلكات احفاد عاد ، باعة الدم والخطايا والدموع ؟
يا رب .. ما دام الفناء
هو غاية الاحياء ، فامر يهلكوا هذا المساء ساموت من ظماوجوع
ان لم يمت ـ هذا المساء الى غد ـ بعض الانام فابعث بـــه قبل الظـــلام

يارب .. اسبوع طويل مر كالعام الطويل والقبر خاو ، يفغر الفم في انتظار .. في انتظار ما زلت احفره ويطمره الغبار » ...

ويستثمر السياب شخصية حفار القبور احسن ما يكون استثمار : متخذا منه شخصية لمسرحية يمكنك ان شئت ان تشارك السياباحاسيس الموت بطريقة خاصة وتشاهد بداية المسرحية بالسياب واقفا في مقبرة قبيل مغيب الشمس فيغيم ضوء الاصيل كئيبا فوق المقابر وتستطيـــل ظلال القبور .. وتاوح للسياب ابتسامات يتامى واهياتوشموعباهتات ويمتد بصره في الآفاق فتهب اسراب طيور سود ..
وتلك صورة بصرية مجسمة يبدو المشهد مائلا فيهـا بوضوح .. وحركية متكاملة تحس فيها هبة رفيف الاجنحة السود :ـ

« ضوء الاصيل يغيم ، كالحلم الكئيب على القبور
واه كما ابتسم اليتامى او كما بهتت شموع
في غيهب الذكرى يهوم ظلهن على دموع
والمدرج النائي تهب عليـه اسراب الطيور
كالعاصفات السود ، كالاشباح في بيت قديم
برزت لترعب ساكنيه
من غرفة ظلماء فيه »

ويتثاءب الظلل ، ويفتح الليل بابا اعمى وشباكا خربا بليدا ويطل على اجواء سدت آفاقها اجنحة غربان الموت وضـــجباطرافها النعيب ضجة رددت الصحراء اصداءها وذرتها الريح .. وقامت بعد ذلـــك ساحرة ومدت اصابعها العجاف فاومأت الى سرب من الغربان أتتطوعا فارشة اجنحة الموت .. وفارت ديدان القبور لتلتهم الفضاء وتشرب آخر قطرة من ضوء حسير ... وأفاق الموتى عطاشى يلهثون ... وافاقالموتى يمسحون عيونهم ولا يصدقون ، وأفاق الموتى ينفضون من على الاكفان غبارا ويلهثون .. ويلهثون .

كل هذا وانت واقف مع السياب تشاهد وصلة من مشهد مـــوت ومقابر موتى وحفار قبور ... واندفعت اسراب الغربان ثقيلة تطفـــو وثقيلة تغوص في لجب ظلام المقابر كالليالي الموحشات ...ولاح خيال وفانوس .. ولاح بصيص ضوء من بعيد :

« وتنفس الضوء الضئيل
بعد اختناق بالطيوف الراعبات وبالجثام
ثم ارتخت تلك الظلال السود وانجاب الظلام
فانجاب عن ظل طويل

يلقيـــه حفار القبور
واليك المشهد من بدايته وباداء السياب ـ
« وتثاءب الظل البعيد ـ يحدق الليل البهيم من بابه الاعمى ومن شباكه الخرب البليد
والجو يملؤه النعيب ...
فتردد الصحراء ، في باس واعوال رتيب ،
اصداءه المتلاشيات ،
والريح تذروهن ، في سام ، على التل البعيد !
وكان بعض الساحرات
مدت اصابعها العجاف الشاحبات الى السماء :
تومي الى سرب من الغربان تلوبه الرياح في اخر الافق المضاء ـ
حتى تعالى ثم فاض على مراقيه الفساح :
فكأن ديدان القبور
فارت لتلتهم الفضاء وتشرب الضوء الفريق !
وتدفع السرب الثقيل ،
يطفو ويرسب في الاصيل ،
لجبا يرفق بالظلام على القبور البالیات
وظلاله السوداء تزحف كالليالي الموحشات
بين الجنادل والصخور
وعلى القبور !
وتنفس الضوء الضئيل ...»
ولاح للسياب حفار القبور جامد الكفين جائعا كذئب سجين ... وهز يمناه في وجه السماء :ـ

« يارب ... اسبوع طويل مر كالعام الطويل والقبر خاو ،يفغر الفم في انتظار في انتظار مازلت احفره ويطمره الغبار ..»
وارى عند هذا الحد ان السياب يبلغ في ادائه من قوة التعبيـــر وطبيعية المقابلة في الرمز والتشبيه مبلغ العبارة الرمزية الممثلة لجميع الحالات عبر حدود حالتها .. ومن هذا الاداء :ـ

« مازلت احفره ويطمره الغبار »

ويبلغ السياب درجة من الاستغراق في الوصف ودقة تفصيـــل لا يمكن ان ينفذ اليها شاعر الا من خلال اندماج كلي في اجواءالتجربة.. تجربة حفار القبور من وجهة تخيل وتصور شاعر متمكن من تركيبالصور تركيبا بالمفهوم الديكارتي للافكار المركبة : واليك التركيب الديكارتي:

« تتثاءب الظلماء فيه ويرشح القاع البليل
مما تعصر اعين الموتى وتنضحه الجلود :
تلك الجلود الشاحبات وذلك اللحم النثير !
حتى الشفاه يمص من دمها الثرى ـ حتى النهود
تذوى ، ويقطر ، في ارتخاء من مراضعها الغير »

لكن السياب لا ينسى جوعه واوجاعه الممضة ، رغم كل ما عصرت اعين الموتى ورغم كل ما نضحت جلود الموتى ولحومهم النثيرة ... ورغم ما امتصت رطوبة نزيز القبر من شفاه ... ورغم كل نزنز المقابر بكـل هذا وذاك ، تراه لاهثا متوجعا متفجعا من شدة الجوع واستبدادالحرمان القاتل حتى حد التغزل بميتات :

« واها لهاتيك النواهد ، والمآقي ، والشفاه
واها لاجساد الحسان ! اياكل الليـــل الرهيب
والدود منها ما تمنـــاه الهـوى ؟ واخيبتاه !
كم جثة بيضاء لم تفتضهـــا شفتا حبيب
امسى يضاجعها الرغام ... »

وانت الآن اذن امام بائس مستكين حسد في اوائل شبابه الديوان وحسد في اواخر الشباب الخائب تراب ودود وظلمة القبر والديدان ـ

« هل كان عدلا ان احن الى السراب ، ولا أنال الا الحنين
ـ والف انثى تحت اقدامي تنام » ..

ثم يعود شبح الحاجة الى الفلوس امام ناظري السياب قاسيا مرعبا اقسى وابرد من كفي حفار القبور :ـ

« افكلما اتقدت رغاب في الجوانح شح مال » .

ويزين له حب الفلوس ما يزين لحفار القبور ... اما ان شئت دقة في التعبير عن واقع الحال تعبيرا مطابقا فقل : ان حب الفلوس عند السياب زين لحفار القبور ان يقول :ـ

« مازلت اسمع بالحروب ـ فأين اين هي الحروب ؟
اين السنابك والقذائف والضحايا في الدروب
لاظل ادفنها وادفنها فلا تسع الصحارى
فادس في قمم التلال عظامهن وفي الكهوف
فكان قعقعة المنازل في اللظى نقر الدفوف
او وقع اقدام العذارى
يرقص حولي لاعبات بالصنوج وبالسيوف » .

وهكذا يندحر السياب فلا يجد سبيلا الى العذارى والفلوس الا من خلال الموت ، والا من خلال امكانات حفار قبور ... وبالخيبة الشاعر المستكين الذي لا يستطيع ان يغوي امرأة الا من خلال محاكمة منطقية يثبت بها انه احق بها من نزيز القبر وديدان القبور !

لكن وليكن ! فقد اندحر السياب وانتصر الادب .. واليك حوارا ياكل العصب ويعلك اللحم ويسحق العظام ... وهو حوار يستمد كل مقومات نجاحه من اخفاق السياب في دروب النساء والفلوس والحياة اخفاق حفار قبور ارتبطت كل لذائذ الحياة عنده باسباب الموت المقيت :ـ

« نبئت عن حرب تدور ولعل عزرائيل فيها
في الليل يكدح والنهار فلا يمر على قرانا
او بالمدينة وهي توشك ان تضيق بساكنيها
نبئت ان القاصفات هناك ما تركت مكانا
الا وحل بـه الدمار ... فاي سوق للقبور
حتى كان الارض من ذهب يضاحك حافريها
حتى كان معاصر الدم دافقات بالخمور !»

وهنا أراني منساقا الى ان اتحمل مسئولية القول بان شخصية « حفار القبور » تحمل ـ مثل شخصية « المخبر » ـ بعضا من صورة السياب عن نفسه ، ضمن حدود : ان النفس البشرية قد تنساق تحت ضغوط الاعاقة الى مسارب تعويضية تظل دفينة في اعمق اعماق اللاوعي ، لكنها ـ ورغم الايغال في اللاشعور ـ لا بد ان تطفو على السطح في حالة شاعر مقتدر مثل هذا السياب الذي لا ينسى جوعه واستكانته وانخذاله في دروب الحياة الجوهرية فيتوجه الى بلاد مات فيها اخر رجل لبحظى بواحدة من النساء ..

وفي هذا انعكاس صريح لاحساس السياب بعدم قدرته على الوقوف ثابتا في مجال منافسة رجل كل امرأة :ـ

« اواه لو اني هناك ، اسد باللحم النثير
جوع القبور وجوع نفسي في بلاد ليس فيها
الا ارامل ... او عذارى غاب عنهن الرجال
وافتضهن الفاتحون الى الذماء كما يقال »

لكن مثل هذا الانعكاس ـ ورغم بشاعته ـ يظل معبرا عن سذاجة وعجز وانخذال في ميدان المنافسة ... وانه ـ في نظري ـ لا يقل بشاعة عن انعكاسه انعكاسا صريحا في رجل يندحر مثل السياب فيخلع ثوب الاندحار ليلبس ثوب الفضيلة ومكارم الاخلاق والموعظة الحسنة غطاء وتغطية للاندحار وهروبا من مواجهة الاعتراف بالانهزام .

لكن هناك ـ ولست بالواعظ المرشد ـ انعكاسا وسطا بين بين ، وارقى من الاثنين ، وهو الانعكاس الذي يعطي منحى متساميا في معارج التصوف والتاله والابداع التجريدي ... وهذا انعكاس لا يحصل الا في حالة يجرب فيها الرجل كل شيء ـ منتصرا ـ مرتين .. فيعاف الدنيا زاهدا فيها زهد موقف وانتصار على الذات في معركة بشرف الجهاد الاكبر ..

ويستدعي حفار القبور اسباب الموت بخوفه :ـ

« مازلت اسمع بالحدوب ، فما لاعين موقدها
لا تستقر على قرانا ؟ ليت عيني تلتقيها
وتخضهن الى القرار ـ وكالنيازك والرعود
تهوي بهن على النخيل ، على الرجال ، على الهود
حتى تحدق اعين الموتى ، كالاف اللآلي
من كل شبر في المدينة .. ثم تنظم كالعقود
في هذه الارض الخراب ـ فيالاعينها ويا لي « ..

ولا اعرف افراحا بالموت بلغت ما بلغه حفار القبور من البشاعة المثيرة لكل دواعي الاستهجان في صورة قل ان تدانيها عبارة في تصوير تدهور الاحاسيس النبيلة وقيم الحق والخير الجمال :ـ

« حتى تحدق اعين الموتى ، كالاف اللآلي
من كل شبر في المدينة .. ثم تنظم كالعقود »

لكن حفار القبور يحاول اقناع نفسه بوجاهة ضراوته وقبح احساسه :ـ

« رباه ! اني اقشعر .. اكاد اسمع في الخيال
اغنية تصف العيون
تنثال من مقهى ، فانصت في الزحام ، وينعتون
وكان ما بيني وبين الآخرين من الهواء
ثدي سخي بالحليب وبالمحبة والاخاء

ويظل رغم احساسه بالخيبة وبالتعاسة كارها للناس كراهية مرضية لا ابرىء السياب منها حين انفعاله باجواء هذه القصيدة :ـ

« يارب ... اسبوع يمر ولست اسمع من غناء
الا النعيب
وتنهد الريح الرتيب
واخيبتاه ! الن اعيش بغير موت الآخرين
والطيبات .. من الرغيف ، الى النساء الى البنين
هي منة الموتى علي ، فكيف الانام ؟
فلتمطرنهم القذائف بالحديد وبالضرام
وبما تشاء من انتقام :
من حميات او جذام ..
نذر علي : لئن تشب لازرعن من الورود
الفا تروى بالدماء ... وسوف ترصف بالنقود
هذا الثرى ... وسوف ارقص في الهجير بلا حذاء

واعد احذية الجنود ...
واخط ، في وحل الرصيف وقد تلطخ بالدماء
اعدادهن ... لاستبيح عدادهن من النهود » .

وهنا ، وعند مثل هذه الاستباحة يتدهور السياب تدهورا لا يمكن ان يتساهل معه معجب بلغ ما بلغ الاعجاب ... وذلك لان السياب قد بلغ من عتمة الاحساس مبلغا لا ينبغي لكاتب « شباك وفيقة» ان ينحط اليه بل ولا أن يقاربه ..

اما ان تنعكس من نفسية السياب الصورة التالية في نفسية الحفار فهذا مالا أجد له تفسيرا الا من خلال ان الشاعر قد مر ابان كتابته لهذه القصيدة بمرحلة عدائيةحادة حارب تحت وطأتهاحتىصورته في المرآة ... والا فاي استيطان لاحاسيس حفار قبور مستقل عن احساس الشاعر قد يبلغ او يقارب هذه النقمة وهذا التوحش :ـ

« ولسوف اغرز بين ثدييها اصابعي اللعينة
ويكاد يخنقها لهاثي وهي تسمع من لظاه
قلبي ووسومة النقود .. نقودها ! واخجلتاه !
انا لست احقر من سواي.. وان قسوتفليشفيع
اني كوحش في الفلاء ... »

ويبرر حفار القبور توحش وضراوة اخيلة السياب بجهل وظمأ وجوع :ـ

« لم اقرأ الكتب الضخام ـ وشافعيظمأ وجوع»
وهي نفس المبررات التي قدمها السيابلفسلادرانضمير«الخبر».
ويدافع السياب عن احساساته المنعكسة في صورة حفار القبور دفاعا يلقي به اثقال آثامه واعباء انهدام وجدانه على آخرين :ـ

« او ما ترى المتحضرين
المزدهين من الحديد بما يطير وما يذيع
مهما ادنات فلن اسف كما اسفوا ـ لي شفيع
اني نويت .. ويفعلون ، وان من يئد البنين
والامهات ويستحل دم الشيوخ العاجزين
لاحط من زان بما انتهك الغزاة وما استباحوا
والقاتلون هم الجناة وليس حفار القبور
وهم الذين يلونون لي البغايا بالخمور
وهم المجاعة ، والحرائق ، والمذابح والنواح
وهم الذين سيتركون ابي وعمته الضريرة
بين الخرائب ينبشان ركامهن عن العظام
او يفحصان عن الجذور ، ويلهثان من الاوام
والصخر كالمقل الضريرة ...»

وكل هذا سرد قصصي تفصيلي اقرب الى مستلزمات التصوير الروائي منه الى مستلزمات قصيدة ...

لكن السياب يستمر في تفصيلات روائية تعبر عن مدى سيطرة اجواء الموت عليه من جهة وعن مدى انعكاس صورة نفسه في شخصية حفار القبور من جهة اخرى ... والا ـ ثانية ـ فاي عملية استبطان مستقلة وغير ذاتية قد تبلغ من حدة الملاحظة ونفاذ سبر الغور ما يبلغه السياب في استبطان شخصية حفار القبور البعيدة عنه كل البعد في جميع جوانبها التكوينية ...

اضف الى كل هذا وذاك ان السياب قد نسي اهتمامات حفار القبور البعيدة عنه كل البعد في جميع جوانبها التكوينيه .
نسي اهتمامات حفار القبور الاصيلة في اكثر من مقطع من مقاطع القصيدة نسيانا تلاشى فيه اخر ظل للحفار في ضجة اهتمامالسياب التخيلية :ـ

« وسيوثقون بشعر أختي قبضتي ... وكالظلام
وكخضة الحمى ، تسمرها على دمها صدور
تعلو وتهبط باللهاث ، كأنهن رحى تدور
يا مجرمون ، الى الوراء ! فسوف تنتفض القبور
وتقيء موتاها . وياموتى ، علم اسم الله ثوروا !
رباه ، عفوك ... ان « قابيل » المكبل بالحديد
في نفسي الظمأ هب وقر يعصره الملال !
فالليل جاء ، وما أزال

وكل هذه اشياء اقدر ان السياب كان حتما سيقولها حتى لو لم يكن حفار القبور شيئا مذكورا في خلد الشاعر باستثناء :ـ

« فالليل جاء ، وما أزال
مستوحدا ارعى القبور وانفض الدرب البعيد »
مستوحدا ارعى القبور وانفض الدرب البعيد »

وتظهر هموم حفار القبور وتطلعاته الحرفية :ـ

« وكان .. يا بشري ! كان هناك فيأقصىالجنوب
خطا كاذيال الظلام ولمعة كدم الغروب !
لكأنه ضيف جديد ..»

وهذا استبشار بالموت لم يسبق لشاعر في العرب او غير العرب ان عاناه وافصح عنه بمثل لهفة السياب ...

ويلوح بعد كل هذا وذاك موكب الجناز ، فيبدع السياب وصفه وصفا يبلغ اقصى حدود البراعة في التصوير :ـ

« وبدا الجناز ، وراح يشهق وهو يدنو بارتخاء:
الاوجه المتحجرات يضيئها الشفق الكئيب
والغمغمات الخافتات من انفعال أو رياء
والنعش يحجبه ضياء
الوانه المترنحات كأنما اعتصر المغيب
فيها قواه ، وذاب فيها كوكب واهي الضياء»

وبعد ان قبض الحفار الاجر ظهرت احلام السياب :ـ

« حتى اذا انهال التراب وصفح القبر الجديد
وتراعش الالق الضئيل ، على الظهور المتعبات
حتى اضمحل ، وغيبتها ظلمة الافق البعيد
كانت مصابيح السماء تنر ضوءا كالضباب
بين القبور الموحشات
وعلى الخرائب والرمال . وكان حفار القبور
متعثر الخطوات يأخذ دربه تحت الظلام
يرعى مصابيح المدينة وهي تخفق في اكتئاب
ويظل يحلم بالنساء العاريات وبالخمور
وتحسست يده النقود وهيأ الفم لابتسام
حتى تلاشى في الظلام ..»

وليس بخاف على احد ان اخيلة النقود قد هذبت لغة السياب وادبت مفردات لغته في هذا المقطع تهذيبا ملموسا ...
ان هذا التهذيب وهذا الادب في رقة التصوير الذي لم تعد فيه

المقبرة موحشة مخيفة ، يعبر ـ في نظري عن استئناس السياب بالنقود التي انمحى في لمعانها اخر غراب واخر نعيب واخر نقمة على البشرية.. النقود التخيلة التي تؤهل السياب ان يحلم بالنساء العاريات وبالخمور.

والنقود التي يعدها حفار القبور هي نفس النقود التي يعدهـــا السياب في « غريب على الخليج » عام ١٩٥٣ :ـ

« مازلت اوقد بالتماعتكن نافذتي وبابي
في الضفة الاخرى هناك . فحدثيني يانقود ».

وفي هذا ما يزيديني قناعة ان السياب قد لبس جلد حفار القبور قناعا مثلما كان قد دخل جلد « المخبر » لاسقاط بعض من صورة نفسه عليـــه ...

ولا اعرف شاعرا عربيا معاصرا عرّى نفسه امام الاخرين مثلمـا فعل السياب ـ ولم يخجل من عريه حتى حين نزع الجلود المستعـارة وظهر اخيرا امام الناس بجلده هو .. جلد السياب حقيقة وبلا قناع ، ويعد النقود صراحة في اواخر حياته ويحلم بالعاريات من النساء .. وكان من الموت قاب قوسين او ادنى وقد فعلت مناشير الجراحين فـي اضلاعه وفقرات ظهره ما لم تفعل بايوب !

وكما يفعل السياب ، عد حفار القبور النقود وهرول بها الى اقرب حانة واحتضن قنينة عرق هناك :ـ

« النور ينضح من نوافذ حانة عبر الطريق
وتكاد رائحة الخمور
تلقي على الضوء المشبع بالدخان وبالفتور
ظلا كالوان حيارى واهيات من حريق
ناء ... تهوم ، في الدجى الضافي، على وجه حزين
وتلوح اشباح عجاف
خلف الزجاج .. تهيم في الضوء السرابي الغريق
ويشد حفار القبور على الزجاجة باليمين ..

وكما يحاذر السياب ويخاف ، يحاذر حفار القبور ويخـــاف ويستهين بما لديه من نقود :ـ

« وكمن يجاذر أو يخاف
يرنو الى الدرب المنقط بالمصابيح الضئال
وتحركت شفتاه في بطء وغمغم في انخذال :ـ
« اظننت انك سوف تقتحم المدينة كالغزاة
كالفاتحين ... وتشتريها بالذي ملكت يداك :
باقل من ثمن الطلاء القرمزي على شفاه
او في اظافر لاحقتها ، ذات يوم ، مقلتاك

ويندحر السياب متواريا تحت جلد حفار القبور بعد ان انـــدحر في شعره صراحة مرات لا تحصى :ـ

« ساعود ، لانهد تعصره يدي حتى الزهول
حتى التأوه والانين وصرخة الدم في العروق »

ويستمر السياب بعد ذلك متوجعا متفجعا بصرف النظر عن حفار القبور الذي تلاشى في لجة طغيان توجع السياب ولهفته اللاهثة:ـ

« ...
الاذرع المتفترات ، وزهـ رتان على الوساد
نسجتهما كف مخضبة الاظافر ـ زهرتان
تتفتحان على الوسادة كالشفاة وتهمسان
نغما يذوب الى رقاد »

اما ان يستدعي شاعر كل اسباب الموت ويستعدي المهلكات على كـل البشر ليتهيأ له من كل هذا ان يتغزل بما لا ينال ولا يبلغه الشاعر الا وهما وفي الخيال ، فهذا هو العجب العجاب الذي يصير السياب منه رمزا للخيبة وتمثالا للحرمان :ـ

« ونعومة الكتفين ، والشعر المعطر ، والشحوب
وتألق الجيد الشهي ، ولفحة النفس البهير
والنور منفلتا من الاهداب .. تثقله الطيوب
قلقـا كمصباح السفينة راوحته صبالعوب
وتخافق الاظلال في دعة ووسوسة الحدير
والحلمتان : اشد فوقهما بصدري باشتهاء
حتى احسهما باضلاعي ، واعتصر الدماء
باللحم والدم والحنايا ، منهما باليدين
حتى تغيبا فيه ـ في صدري ـ الى غير انتهاء
..... »

وكل هذه تعرية عاطفية حسية غير فنية ، ولا ينبغي ان تـدخل بابا من ابواب الادب في حال من احوال شرف قصد الادب الهـادف البناء ، ضمن حدود التأكيد على ضرورة التزام النص الادبي لحرمات المحافظة في التعبير محاظة تمنع تسرب الهواجس الخاصة الى ديـوان الادب ..

اما أن يستدعي السياب الموت ويستعديه على الناس من اجل ان ينتهي الى تعرية عاطفية غير فنية وغير ادبية وغير ضرورية ... فذلك مالا اجد الى تفسيره سبيلا الا من خلال التأكيد على ان السياب كان يرى في الاحياء من الرجال خطرا لا يقوى على الوقوف امامه في ميدان المنافسة ... وفي هذا ما فيه من الاحساس بالانخذال ...

لكن مثل هذا الانخذال يعبر عن مدى التلازم الوثيق بين الانخذال والموت والافلاس في شعر السياب ... وان يهرع الى الموت بطريقـة او بأخرى كلما افلس وكلما انخذل ... ومات السياب مفنيـا اوجاع الافلاس وقلة الحظ والمرض واشباح الموت : الاشباح التي لازمتـــه بالحاح قاتل ولجاجة ممضة حتى جاءه الموت باليقين ..

وان السياب ـ اعيدها ثانية ـ قد بذل من النفس اقصى ما قـد يجود به شاعر ولم يخجل من عريه امام الآخرين ..

اما ان كان لا بد من مأخذ على الشاعر في هذا المجال فهـو انه قد عرّى نفسه اكثر مما ينبغي : متجاوزا حدود فن التعرية الى ابتذال نقل فيه احاسيسه وهواجسه الخاصة باقل قسط من جماليه قـد يتدهور اليها شاعر كبير مثل السياب ..

والموت الموت !! والنساء النساء !! والنقود النقود ! ويسترجـع حفار القبور نقودا كان قد دفعها الى امرأة في ليلة مريبة :ـ

« ماتت كمن ماتوا ووراها كما وارى سواها ».

وتباركت ذكرى السياب خالدة في مواكب الشعراء .

بغداد — مدني صـالح

« دار الآداب تقـدم »

مؤلفات هربرت ماركوز

ق.ل.

الانسان ذو البعد الواحد	ترجمة جورج طرابيشي	٤٠٠
نحو التحرر (فيما وراء الانسان ذي البعد الواحد)		
ترجمة ادوار الخراط		٢٠٠
الحب والحضـارة	ترجمة مطاع صفدي	٦٠٠
فلسفـة النفي	ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد	٥٠٠